اللجنة الاستشارية العليا للعمل
على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

الشريعة الإسلامية

بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق

بقلم
الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني
إدارة البحوث والدراسات

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م

طبعة خاصة باللجنة الاستشارية العليا

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على المبعوث رحمة للعالمين ، سيدنا ونبينا محمد وعلى آله الطيبين ، وأصحابه الغر الميامين ، ومن تبعهم وسار على هديهم إلى يوم الدين.

وبعد :

فإن إدارة البحوث والدراسات في اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية تتقدم بإصدارها الخامس عشر في سلسلة تهيئة الأجواء لاستكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وهو بعنوان :

(الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع في التطبيق)

وهو من تأليف فضيلة الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني – ويعد الشيخ عبدالرحمن في الطليعة بين علماء هذا العصر ، فكراً ، وعمقاً ، وذكاء وغزارة في التصنيف والتأليف وقد ألف العلم ، وألفه العلم منذ نعومة أظفاره ، حتى جاوز فيه السبعين من عرمه دون ما انقطاع ، وقد تلقاه من معدنه ، وسار فيه يتصيده من موارده ، حتى حذفه ، وفاق الكثيرين فيه ، فوالده رحمه الله تعلى كان أعجوبة في الذكاء ، وفلتة في العلماء ، وقد قيل :

بأبه اقتدى عدي في الكرم ومن يشابه أبه فما ظلم

وكتابه هذا كان في المستوى الرفيع في موضوعه ، حيث بلور فكرة التدرج في التشريع والتطبيق ، ومد رواقها ، حتى تخطت على كل شئ ، وكأنها سمة الحياة ، وقانون الوجود ، ومنطق الأشياء صعوداً وهبوطاً ، وكان في طرحه لهذا الموضوع عقلانياً يتتبع موارد النصوص ، ويغوص في أعماق مراميها من غير أن يعرج على أطروحات من سبقه من المؤلفين.

فكان حراً في بحثه يتعامل مع روح النصوص ، ومظاهر الوجود ، دون قيود من الآراء والمخلفات من الأفكار ، فجاء بحثه طليقاً كاملاً شاملاً نافعاً مقنعاً ، وسوف يجد القارئ لهذا البحث ما يقنعه ، ويثلج صدره إن شاء الله تعالى.

ولقائل أن يقول : إن إدارة البحوث في اللجنة الاستشارية العليا قد قدمت إصدارين قبل هذا الكتاب في نفس الموضوع ، فما الحكمة من إصدار هذا الثالث ؟

والجواب : أن موضوع التدرج في تطبيق الشريعة في مثل أيامنا ذو حساسية خاصة ، وللناس حياله مواقف وآراء ، فأحبت إدارة البحوث أن تغني هذا الموضوع بالبحث ، وتجلي جوانبه بالأدلة ، والمواقف – وتلم بأطرافه حتى تصل بالناس إلى قناعة مرضية ، ونتيجة مقبولة ، ومعقولة .

أضف إلى هذا أن لكل مؤلف ميزة ، وكل كاتب وجهة وخبرة ، ولا يخلو كل مؤلف من جديد ، ولا ينفك عن زيادة ، وكتاب الشيخ عبدالرحمن يمتاز على سابقيه بمثل ما قلنا من مد رواق التدرج حتى غدا ، وكأنه الحكمة المتوخاة في كل شئ ، والسمة التي قام عليها الوجود ، والله سبحانه وتعالى أرشد عباده أن يسلكوا دروب الحكمة في تعاملهم وقدراتهم وهو أعلم بالنوايا ولا تخفي عليه المقاصد ،وهو سبحانه المسؤول في بلوغ الغايات ، وتحقيق المآرب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المؤلف في سطور الشيخ عبدالرحمن بن فضيلة الشيخ محمد حسن حبنكة الشهير بالميداني .

ولد في دمشق سنة : ١٩٢٧ م . في أسرة علم ودين.

نشأ في كنف والده علامة الشام الداعية المجاهد فضيلة الشيخ محمد حسن حبنكة الشهير بالميداني . وتربى في مدرسته التي خرجت كبار العلماء ، وصارت تعرف بمعهد التوجيه الإسلامي .

عمل أستاذاً في هذه المدرسة عدة سنوات .

سافر إلى القاهرة وانتسب إلى الأزهر ، ونال الشهادة العالية مع تخصص التدريس سنة ١٩٥٤م.

عمل مدرساً في ثانويات دمشق العامة والشرعية بعد عودته من مصر وتولى فيها تدريس التربية الدينية والعلوم الإسلامية والعربية .

تسلم منصب مدير التعليم الشرعي في سوريا من سنة ١٩٦٠ وحتى سنة ١٩٦٦م ، مع قيامه بالتدريس في الثانويات الشرعية.

عمل عضواً للبحوث في وزارة التربية في سوريا لمدة عام .

قدم إلى المملكة العربية السعودية سنة ١٩٦٧ (١٣٨٧هـ) ، ودرس في جامعاتها في الرياض ومكة المكرمة قرابة ثلث قرن.

قد أحاديث إذاعية في المملكة العربية السعودية ، كانت يومية لمدة تسع سنوات ، ثم أصبحت أسبوعية.

له مشاركات فعالة في محاضرات وندوات ومؤتمرات محلية وخارجية متعددة ، له الكثير من المؤلفات والتي تقارب الأربعين كتاباً ، معظمها من المجلدات الكبيرة . اختير عضواً للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، وهيئة الإغاثة الإسلامية .

من مؤلفاته :

العقيدة الإسلامية وأسسها ، والأخلاق الإسلامية وأسسها ، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ، مكائد يهودية عبر التاريخ ، صارع مع الملاحدة حتى العظم ، أجنحة المرك الثلاثة وخوافيها . غزو في الصميم ، الكيد الأحمر ، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة ، ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ ، ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة ، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم (دراسة فكرية وأدبية ولغوية) ، الصيام ورمضان في السنة والقرآن ، براهين وأدلة إيمانية ، قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل ، مبادئ في الأدب والدعوة ، بصائر للمسلم المعاصر ، تفسير سورة الفرقان ، نوح عليه السلام وقومه في القرآن المجيد ، تفسير سورة الرعد ، أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع ، ابتلاء الإرادة بالإيمان والإسلام والعبادة ، الأمة الربانية الواحدة ، التحريف المعاصر في الدين ، البلاغة العربية ، فقه الدعوة إلى الله ، توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية ، أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية ، تيسير فقه فريضة الزكاة ، صفات عباد الرحمن ، وغيرها من كتب وكتيبات وبحوث ومقالات.

وله ثلاثة دواوين شعرية : يدوان : أقباس في منهاج الدعوة وإعداد الدعاة . وديوان : ترنيمات إسلامية . وديوان : آمنت بالله . وله شعر كثير لم يطبع بعد.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة :

الحمد لله الرب العليم الحكيم ، الذي خلق الناس ليبلوهم في ظروف الحياة الدنيا ، ثم ليجازيهم يوم الدين ، على ما قدموا في حياة الامتحان القصير ، لحياة الخلود ، بنعيم في جنات النعيم للمؤمنين المتقين ، أو بعذاب أليم في الجحيم ، دار عذاب المجرمين.

وإذ وضع الله عز وجل الناس موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا ، كان من حكمته الجليلة أن يصطفى لهم الدين ، ويرتضيه لهم ، وهو ما يشتمل على مواد امتحانهم إيماناً ، وعملاً ظاهراً وباطناً ، وأرسل لهم الرسل ليبلغوا عنه من الدين الذي اصطفاه لعباده ما يلائم أحوال تطورهم البشري الارتقائي المتدرج ، وختمهم بالرسول النبي العربي الأمي الأمين ، محمد بن عبدالله ، عليه أفضل الصلاة وأتمالتسليم ، وختم برسالته التامة الكاملة العامة لكل العالمين رسالاته للناس ، وأتم لهم بها مطلوبة من عبادة في رحلة امتحانهم ، وجعل كمالها ملائماً لبلوغ الناس التطور الارتقائي العلمي والحضاري ، الذي يلائمه دين كالم شامل بأصوله ومناهجه ، وكاف للبشرية حتى آخر وجود الناس في الأرض ، المقدر أن يوضعوا موضع الامتحان فيها.

وجعل الله عز وجل بفضله ورحمته هذا الدين الخاتم ، والأحكام ، التي اشتمل عليها ، سهلة ميسرة ، ومطابقة لمصالح الناس في الحياة الدنيا ، وموصلة بفضله ووعده الكريم إلى السعادة الأبدية الخالدة ، لمن آمن بها ، واتبع ما جاء فيها من أوامر ونواهي ووصايا وأحكام ، على قدر استطاعته .

وأبان جل جلاله وعظم سلطانه أن الدين عنده هو الإسلام ، أي : الاستلام له بالسمع والطاعة والانقياد لما أنزل إليهم من بيانات ، في رسالاته لعباده ، منذ عهد آدم عليه السلام ، حتى خاتم النبيين والمرسلين.

وقد كانت الأمة الإسلامية تعمل بصورة عامة بأحكام الدين الذي أرسل الله به محمداً ﷺ ، ضمن اجتهادات المجتهدين ، وبنسب متفاوته في العصور التزاماً وتقصيراً ، طوال أكثر من عشرة قرون ، حتى تسللت إليها مفهومات وتطبيقات الغزو الفكري ، والنفسي ،

والسلوكي ، وهو الغزو الذي جاءت به جيوش أعداء الإسلام وكتائبه الظاهرة والمقنعة بأقنعة مختلفة ، بأسلوب استعماري عسكري ، أو ثقافي تعليمي ، أو تحويلي سلوكي عن طريق الاختلاط الاجتماعي ، أو بأسلوب إملاء إرادات الدول العظمى ، أو عن طريق المتسللين المنافقين ، أو العملاء المأجورين.

وجرى التحويل في الأخلاق ، والعادات ، الأنظمة والقوانين ، وصور السلوك الفردي والأسرى والاجتماعي العام ، وكان ذلك بالتدرج.

فابتعدت معظم شعوب الأمة الإسلامية ودولها عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، إذا استوردت من الغرب ومن الشرق أنظمة وضعية مخالفة لأحكام الشريعة الإسلامية ،وغير محققة لمبادئ الحق ، والعدل ، والخير ، ومصالح العباد وطهارة الأفراد والجماعات من الأرجاس ، في كثير من عناصرها .

وكان الجهل بالدين ، وبمفهوماته العقلية والعلمية والنصية والاستنباطية ، والجهل بالعلوم الكونية والآراء الإنسانية التي توصلت إليها البشرية ، في القرون المتأخرة ، هو السمة التي اتسمت بها شعوب الأمة الإسلامية ، والدركة التي انحدرت إليها هذه الشعوب ، إذ تراكمت عليها عوامل كثيرة داخلية وخارجية في طليعة الأمم علماً ، وفقهاً ، وحضارة ، وقوة وهيبة ، بين الناس أجمعين ، شعوباً ودولاً ، وكانت هي الرائدة في العلم ، والظواهر الحضارية السليمة ، والقوانين والأحكام الحكيمة.

ولما بدأت شعوب الأمة الإسلامية ، منذ أوائل القرن العشرين الميلادي ، ترتقي علمياً وحضارياً شيئاً فشيئاً ، وتحاول مسايرة الأمم التي سبقتها في التقدم المادي ، خلال عصور الانحطاط المتأخرة ، وبدأ الوعي الديني ينتشر فيها شيئاً فشيئاً ، وبدأت العلوم الإسلامية تشرق بنور الحق والعدل والخير والهدى ، ظهر كثير من طلاب العلم الديني المثقفين ثقافة إسلامية سليمة ، يرفعون أصواتهم مطالبين بالعودة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، ووضع قوانين الدول الإسلامية وأنظمتها بما يتفق مع أحكام الإسلام ، لكن بحماسة فجة ، لا تتفق وسنة التدرج التي هي سنة الله عز وجل في الخلق وفي التشريع ، وفي سائر تصاريفه في كونه.

وإذ ظهر ها التوجه الحميد في العالم الإسلامي ، على اختلاف شعوب المسلمين ، واختلاف أعراقهم وألوانهم ولغاتهم ، كان على أهل العقل والرشد أن يضعوا المنهج السوي الحكيم ، الذي تعود به الأمة إلى رشدها ، وإلى تطبيق أحكام ربها في قوانينها وأنظمتها وسائر أنواع سلوكها الفردي والاجتماعي.

وقد سرني جداً أن تقوم دولة الكويت رعاها الله ، بتكوين لجنة استشارية علياً للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. وسرني جداً أن تكون هذه اللجنة إدارة خاصة للبحوث والدراسات ، بغية التوصل إلى البرنامج الأمثل لتحقيق الهدف المنشود ، وتهيئة الأجواء للعودة إلى تطبيق الأحكام الشرعية ، بوضع القوانين والأنظمة لهذا التطبيق في الدولة وفي الشعب.

وأنا بعون الله سأعالج في هذه الرسالة الموجزة تدرج الشريعة الإسلامية في أحكامها وتطبيقاتها ، مبيناً سنة الله عامة في تصاريفه في كونه.

والحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، ومزيد من الصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي

أستاذ بجامعة أم القرى سابقاً

الباعث على كتابة هذه الرسالة

وصلتني رسالة من سعادة مدير إدارة البحوث والدراسات في اللجنة الاستشارية العليا ، للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، في الديوان الأميري لدولة الكويت ، حفظه الله ورعاه .

وتتضمن هذه الرسالة دعوتي للمشاركة في سلسلة تهيئة الأجواء لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، مع تحسين الظن بي.

وقد عرض على سعادته ثلاثة موضوعات ، لأكتب بواحد منها ، فاستجبت شاكراً لهذه الدعوة ، واخترت من الموضوعات الثلاثة المعروضة على ما يلي :-

(الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق)

وسبب اختياري الكتابة في هذا الموضوع ، أن معظم المطالبين بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية من الشبان ، يندفعون بحماسة شديدة ، لتحقيق هذه الغاية بأسلوب الطفرة ، لا بأسلوب التدرج الحكيم ، ويزينون توجهاتهم بمقولات : أن الله عز وجل أتم للمؤمنين المسلمين دينهم ، فلا يسعهم إلا أن يطبقوا كل أحكام هذا الدين دفعة واحدة ، أفراداً وجماعات وحكومات ، مستبعدين عن تصورهم سنة الله في الخلق ، وسنته في التشريع ، وسنته في التطبيق ، في كلا رسالاته للناس ، ومنها الرسالة الخاتمة ، وفي التربية ، وفي التعليم ، وفي معالجة الأمم ، وفي تبليغ عناصر الدين ، وفي تنزيل القرآن منجماً ، وفي كل تصاريفه في كونه ، لأن حكمته الجليلة قد قضت الالتزام بسنة التدرج.

وبسبب خطئهم في هذا التوجه الطفري الفج ، تورطوا في أعمال خائبة النتائج.

الفصل الأول

تعريفات

التدرج لغة :

هو التنقل الارتقائي في الدرجات صعوداً درجة فدرجة .

والدرجة : المرقاة ، وهي الواحدة من الدرج ، ويقال لغة : واستدرجه : إذا رقاه في الدرج من درجة إلى درجة . وإذا أمهله ويقال : درج فلان الشئ ، أي : جعله درجات ، ودرج البناء ، أي : جعل له درجاً .

ويقال : درج الرجل يدرج درجاً ودروجاً ودرجاناً ، إذا مشى مشية الصاعد في الدرج.

ويطلق الدرج في اللغة على الطريق ، ودرج السيول طريقها في معاطف الأودية.

ويقال لغة : درج فلان فلاناً إلى الشئ ، إذا أدناه منه على التدريج.

ودرج الأمر فلاناً ، أي : حمله على التدرج فيه .

ويظهر أن أصل المادة يدور حول التنقل الارتقائي في الدرجات صعوداً درجة فدرجة ، كما ذكرت آنفاً ، ثم حصل توسع في اللغة ، شمل الصعود وغيره .

ويقابل الدرجة في الاتجاه المعاكس النازل إلى الأسفل ، ما يسمى في اللغة (الدركة) وهي المنزلة السفلي المعاكسة للدرجة التي هي المنزلة العليا.

فالدركات منازل بعضها تحت بعض ، والدرجات مراقي بعضها فوق بعض .

- الفضائل : درجات
- والرذائل : دركات

ولم أجد أن العرب استعملوا التدرك ، في مقابل التدرج .

التدرج اصطلاحاً

من خلال المفهومات العامة لإطلاق عبارة " الدرج " في العلوم ، وفي أقلام الكتاب ، وعلى ألسنة أهل الفكر ، أستطيع أن أضع التعريف التالي للتدرج اصطلاحاً.

التدرج اصطلاحاً : تجزئة العمل المادي أو المعنوي إلى أجزاء متعددات ، بحسب نسبة المسافة بين البدء والغاية ، وبحسب قدرة العامل من عمله منجزاً له ، مسهل

وموطئ للانتقال إلى ما بعده في الترتيب الطبيعي ، بغية عمله ، حتى إنجازه واجتناء ثمرته ، ويكون العمل فيه ميسراً سهلاً.

وهذا التدرج وفق المعنى الاصطلاحي ، ينطبق على كل عمل جسدي ، أو نفسي ، أو فكري ، أو قلبي ، قابل للتجزئة ، ويتم به النمو والزيادة فيعظم ويكبر ، ويتكامل شيئاً فشيئاً حتى يبلغ ذورة كماله . أو يتم به التناقص شيئاً فشيئاً حتى يبلغ ما دون الدركة السفلي من دركاته ، وعندئذ لا تبقى منه بقية ما .

وقد اقتصرت على لفظ " التدرج " عنواناً اصطلاحياً لحالتي الترقي الصاعد في الدرجات ،والتنازل الهابط في الدركات ، لأن هذا العنوان هو السائد في العرف العام.

ويكون التفريق في الحالتين بأن تقول : التدرج المتصاعد ، والتدرج المتنازل .

وللتدرج في حالة الارتقاء وسائل :

- فمنها ما يشبه وسيلة الصعود في الدرج ، درجة فدرجة .
- ومنها ما يشبه وسيلة الارتقاء في الجبل ، خطوة فخطوة .
- ومنها ما يشبه وسيلة الرفع إلى الأعلى بالرافعات مسافة فمسافة.

وللتدرج في حالة الهبوط والتنازل إلى الأسفل وسائل :

- فمنها ما يشبه وسلة التدلية شيئاً فشيئاً ، كإنزال الدلو مسافة فمسافة ، وقبضة فقبضة .
- ومنها ما يشبه وسلة النزول في الجبل باتجاه أسفل الوادي خطوة فخطوة.
- ومنها ما يشبه النزول في الدركات دركة فدركة.

أضداد التدرج :

وأضداد التدرج في حالة الارتقاء : الطفرات ، والقفزات ،و الاندفاعات السريعات ، اللاتي لا تلائم المسافات العاليات التي يراد الارتقاء إليها ، ولكل مكان عال تدرج يلائمه بحسب قدرات الراغبين في الارتقاء.

والطفرات والقفزات والاندفاعات السريعات الاتي لا تلائم المسافات العاليات المراد الارتقاء إليها ، مصحوبات بالخيبة وعدم بلوغ الغايات المنشودات.

وأضداد التدرج في حالة النزول والهبوط ، والإلقاء في الهاوية ،والقفز إلى منازل بعيدة يتكسر القافز إليها ، والنزول من الأمكنة المليئة بالعقبات والعشرات والمزالق ، إلى غير ذلك من صور ، تكون مصحوبات غالباً بالخيبات والمتاعب أو المهالك

الفصل الثاني

خطة الشيطان في الإغواء

وقد اتخذ إبليس اللعين ، وتبعه شياطين الجن والإنس ، سياسة التدرج التنازلي إلى الحضيض ، ومستوى أسفل سافلين ، لدى إغوائه للناس وإضلالهم ، وإبعادهم عن صراط الله المستقيم ، وهدفه إخراج الناس من طاعة الله شيئاً فشيئاً ، ثم إخراجهم من عناصر الإيمان بما يجب الإيمان به شيئاً فشيئاً ، والهبوط بهم في دركات الإثم والكفريات دركة فدركة ، حتى إبلاغهم إلى استحقاق الدرك الأسفل من النار.

- وقد حذر الله عز وجل بني آدم ، منذ عهد آدم حتى آخر تاريخ الناس في الأرض ، من اتباع خطوات الشيطان.

قال الله عز وجل في سورة الأنعام ، ٦ مصحف ، ٥٥ نزول) بعد الحديث عن بعض مفتريات المشركين في الجاهلية من تحريم بعض ما أحل الله من الأنعام والحرث : (... ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين).

فوصف الله عز وجل إغواء الشيطان وأعمال إضلاله لهم ، بأنه يتبع فيها سياسة الخطوات المتدرجات دركة فدركة للإبعاد عن طاعة الله والإلتزام بشرائعة ومناهجة لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا.

* وقال الله عز وجل في سورة (البقرة ، ٢ مصحف ، ٨٧ نزول)

خطاباً للناس جميعاً :

(يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (١٦٨) إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (١٦٩).

فأبان هذا النص أن سياسة الشيطان في الإضلال والإغواء ، في المآكل والمشارب ، وفي السوء والفحشاء ، وفي الافتراء على الله في الدين ، هي سياسة الخطوات ، خطوة فخطوة ، لا سياسة النقل بأسلوب الطفرة ، وهذا من شدة مكره وكيده ، واختياره أنجح الوسائل لتحقيق غاياته الخبيثات .

- وخاطب الله الذين آمنوا بأن يدخلوا في السلم كافة ، فلا يتقاتلوا فيما بينهم ، ليكونوا بمثابة الجسد الواحد ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان التي توصلهم إلى التخاصم فالتعادي فالتقاتل ، فقال الله عز وجل في سورة (البقرة / ٢ مصحف / ٨٧ نزول) :

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين (٢٠٨) فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم(٢٠٩)) :

أي : فإن زللتم باتباع خطوات الشيطان فتقاتلتم ، فاعلموا أن الله عزيز غلاب ، قادر على معاقبتكم والانتقام منكم ، واعلموا أن الله حكيم ، إذا اقتضت حكمته معاقبتكم فلا أحد يحميكم من عقابه وعذابه ، وإن كنتم مؤمنين.

- وخاطب الله الذين آمنوا بعد الكلام عن حادثة الإفك ، والتنديد بالذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وإنذارهم بعذاب أليم في الدنيا والآخرة ، فقال الله عز وجل في سورة (النور ، ٢٤ مصحف ، ١٠٢ نزول) :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ، ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم).

أي : ولو فضل الله عليكم بالحفظ من الوقوع في الفحشاء والمنكر ، ورحمته لكم بالغفران والعفو ، ما زكى (أي : ما طهر) منكم من أحد أبداً ، والمعنى : فلا تشيعوا الفاحشة في الذين آمنوا ، بالأقاويل الإفكية ، والأقاويل التي لا تستند إلى حكم قضائي معلن ، وفق أحكام القضاء الشرعي.

- وقداستخدم إبليس في خطواته المتدرجات لإغراء آدم وزوجه ، حتى يأكلا من الشجرة المحرمة عليهما في الجنة ، سياسة التدلية قبضة فقبضة في بئر المعصية ، حتى خالفاً نهي الله لهما ، فأكلا منها ، فكان السبب في إخراجهما من الجنة.

قال الله عز وجل في سورة (الأعراف ، ٧ مصحف ، ٣٩ نزول) في بيان قصة خلق آدم ، وإسكانه هو وزوجه الجنة ، ونهيهما عن أن يأكلا من شجرة معينة ، أو من صنف معين من الشجر ، وكان قد حذرهما من الشيطان ووساوسه وأبان لهما أنه عدو لهما مبين :

(ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (١٩) فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (٢٠) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين (٢١) فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقاً يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين (٢٢) قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (٢٣) قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٢٤) قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون (٢٥)).

فكانت وسيلة إبليس في الإضلال والإغواء والإسقاط في بئر المعصية ، هي وسيلة التدلية بالحبل قبضة فقبضة ، وبها حقق غايته فجعل آدم وحواء يعصيان ربهما ، وشفى غيظة بإخراجهما من الجنة.

التدلية : إرسال الدلو في مهواة البئر ، والحبل الذي يرسل به الدلو في مهواة البئر يسمى الرشاء ومن طبيعة التدلية أن تكون شيئاً فشيئاً ، قبضة على الرشاء فقبضة ، ولا يكون إلقاء بمرة واحدة.

ويقال لغة : دلى الشئ في المهواة ، إذا أرسله فيها ، ومن طبيعة هذا الإرسال أن يكون شيئاً فشيئاً ليحقق الغاية المطلوبة منه ، وإلا باء المرسل بالخيبة ، فلم يحقق غايته.

وضد التدلية في حالة الهبوط والإنزال إلى الأسفل ، الهوي ، والإلقاء في اتجاه الأسفل العميق بمرة واحدة ، وهما مصحوبان بالخيبة في أغلب الأحوال ، ولهذا لم يضعهما إبليس في خطة إغوائه .

ولكل إنزال من الأعلى إلى الدرك الأسفل تدلية تلائم المهاوي التي يراد اجتياز مسافتها ، وتلائم المهابط التي يراد الإيصال إليها.

فالإصلاح الارتقائي المادي والمعنوي المرفق لا بد فيه من سياسة التدرج ، على اختلاف صوره.

والإفساد الانحداري التسفلي المؤثر لا بد فيه من سياسة التدرج ، على اختلاف صوره.

الفصل الثالث

أعمال الناس الناجحة هي التي تتبع فيها سياسة التدرج

يضيع بعض الخياليين من الناس أعمارهم في أحلام يقظة طفروية ، تعتمد على المصادقات ، أو خوارق العادات ، أو المغامرات الطائشات ، أو الاتدفاعات الرعناء ، بحثاً عن كنز ، أو طلباً لمجد ، أو قفزاً لبلوغ سلطان ، أو لتحقيق هوى من أهواء نفوسهم ، وقد يكدون لاهثين متنقلين بأوهامهم ، لبلوغ أحلام حياتهم العظمة ، فيذهبون ضحاياً أوهامهم صرعى ، أو يقضون رحلة حياتهم متنقلين من فشل إلى فشل ، ومن خسارة إلى خسارة ، وتأتيهم آجالهم وهم خائبون ، لم يحققوا شيئاً مما كانوا به يحلمون.

لكن كل الأعمال الناجحة التي بلغت ذرواتها ، أو ما تيسر لها أن تبلغة في اتجاه الذروات ، في المجتمعات الإنسانية ، فإنها الأعمال التي اتبع مؤسسوها ومنشؤوها سياسة التدرج المترقي ، درجة فدرجة ، أو خطوة فخطوة ، أو مسافة فمسافة ، وفق مراقيها الطبيعية ، وإمكانيات الراقين في اتجاه الذروات.

أمثلة :-

١ -ناطحات السحاب في العالم ، لم تبلغ ما بلغته من ذروات ، غلا حين اتبع بناتها سياسة التدرج التكاملي شيئاً فشيئاً ، بدءاً من وضع مخططاتها ، فحفر أرضها ، ووضع أساساتها ، حتى وضع آخ لبنة فيها ، وحتى دق آخر مسمار فيها ، وحتى آخر عمل من كسوتها .

٢ -المصانع العظمى في العالم ، لم تبلغ ما بلغته من ذروات ، إلا حينما اتبع مؤسسوها وبناتها سياسة الإنشاء التدرجي التكاملي شيئاً فشيئاً ، بدءاً من أوائل التفكير فيها ، العمل في إنشائها ووضع مخططاتها الهندسية التكاملية ، واستمراراً تدريجياً شيئاً فشيئاً حتى بلغت ما بلغته من ذروات.

٣ -الدول العظمى لم تصر دولاً عظمى دفعه واحدة ، وإنما اتبع مؤسسوها ، وبناتها من بعدهم ، سياسة الإنشاء التدريجي التكاملي ، لكل مؤسساتها العسكرية ،

والمدنية ، والتنظيمية ، والعمرانية ، بدءاً من أوائل أدراج الارتقاء في كل مجال من مجالاتها ، وفرع من فروعها ، حتى الدرجات العليا في كل منها.

٤ - التربية والتعليم لدى الأفراد ، والجماعات ، والمؤسسات التعليميية ، لا يتم تحقيق المطلوب الممكن منها إلا باتباع سياسة التدرج التكاملي الارتقائي ، على وفق الترتيب الطبيعي الذي فطر الله عز وجل عليه النفوس البشرية ، وشجرات التعليم والتعلم ، في كل علم من العلوم ، ولك فن من الفنون.

وهذا ما التزمت به مؤسسات التربية والتعليم في العالم بدءاً من مرحلة الحضانة ، حتى غاية الجامعية ، إذ تضع المناهج الدراسية على وفق ارتقائها الطبيعي التدريجي تدرجاً تكاملياً . وإذ تضع أساليب التربية والتعليم ووسائلهما ، لكل سنة من السنوات الدراسية التصاعدية ، أو لكل فصل من الفصول الدراسية المتصاعدة ، بما يتلاءم مع المرحلة الدراسية ، وأعمار الدراسين فيها.

٥ - الزراعة الناجحة ، لابد فيها من اتباع المراحل التدرجية ، التي رتب الخالق الرب الحكيم أكوانها ترتيباً طبيعياً تدرجياً.

فبدء العمل الزارعي يكون باختيار الأرض الصالحة للنوع الذي يراد استنباته ، والاستكثار منه ، ويكون بتهيئة وسائل إمدادها بما يحتاج إليه هذا العمل من ماء وبذور وغير ذلك.

ثم يقوم المهتم بزراعتها بحرثها وتسوية مواضع إلقاء البذور فيها ، ثم يقوم بتعهدها يوماً فيوماً بما تحتاج إليه من ري وسماد ، وتعشيب ، وحماية ، وغير ذلك من أمور ، حتى آخر الأعمال المتدرجة تدرجاً طبيعياً ، ونضج زرعها وحصاده حتى تسويقه.

٦ - وهكذا في كل عمل كبر أم صغر ، حتى أصغر الأعمال اليومية الشخصية في المنزل أو خارج المنزل.

فلا يكون العمل ناجحاً ما لم يتبع عاملوه سياسة التدرج ضمن طبيعة كل عمل من الأعمال ، إذ كل عمل مؤلف من عناصر ، فعناصر مرتبة في نظام التكوين ترتيباً تدرجياً تصاعدياً.

حتى القدر في المطبخ لا يوضع على النار لطبخ ما فيه ، إلا مسبوقاً بأعمال إعداد أرض الموقد ، وإقامة الموقد الصالح الذي يثبت عليه القدر ، والصالح لأن توقد فيه النار تحت القدر ، وإعداد الوقود ، وإعداد مواد الطعام الذي يارد طبخه ، إلى غير ذلك من أمور لازمة لهذا العمل الصغير اليسير ، الذي يمارسه ويقوم به كل من يريد إعداد طعام مطبوخ.

فمن كان عاقلاً رشيداً ، وكان حريصاً على أن يكون ناجحاً في عمله ، فإنه يلتزم حتماً باتباع سنة التدرج .

الفصل الرابع

ربوبية الله للعالمين من صفاتها الالتزام بسنة التدرج في حالتي الإنشاء التصاعدي والتنكيس التنازلي

معاني الربوبية :

اسم الله " رب العالمين " هو الاسم الجامع لكل صفات الله وأسمائه الحسنى ، ذات العلاقة والأثر في كل ما سوى الله عز وجل ، لأن لفظ (العالمين) يطلق بالمعنى العام على كل ما خلق الله – جل جلاله وعظم سلطانه – من أشياء وأحياء.

ولهذا جاء وصف الله عز وجل في القرآن المجيد بأنه :

" رب العالمين – ورب كل شئ – ورب السماوات والأرض – ورب السماوات السبع – ورب العرش العظيم – ورب الشعرى (وهو نجم كان يعبد في الجاهلية) – ورب المشرق والمغرب – ورب المشرقين والمغربين – ورب المشارق والمغارب – ورب الفلق – ورب البيت – ورب الناس ".

فكلمة " رب " هي في الأصل مصدر فعل " رب " يقال لغة " رب فلان الصبي أو المهر مثلاً يربه ربا ".

ويقال أيضاً " رباه يربيه تربية " .

ويقال أيضاً " ربه يربيه تربيباً ".

فكلمات " الرب ، والتربية ، التربيب " مصادر لأفعال مختلفة في صيغها ، ومعناها واحد " .

وقد استعيرت كلمة " الرب " من المصدرية ، إلى اسم الفاعل ، فصارت تطلق كلمة " الرب " بمعنى المربي.

والتربية : هي الإنشاء المتدرج للشئ ، حياً كان أم غير ذي حياة ، وتعهد الشئ حالاً فحالاً ، وطوراً فطوراً ، بحسب فطرته التي فطره الله عليها ، واستعداداته التي منحه الله إياهاً ، حتى إبلاغه ذورة كماله المقدر له.

وسنة الإيجاد الإنشائي التكاملي تقابلها سنة الهدم والتنكيس في الخلق ، حتى الإفناء التنازلي التناقصي وحتى الحضيض والعدم ، المناظر في الهبوط في الدركات لحالة الصعود في الدرجات حتى بلوغ الذروات.

فتشمل ربوبية الرب بعموم معناها تعهد المربوب من بدء إنشائه صاعداً لذروة كماله المقدر له ، وحتى غاية انتكاسه لحضيضه فإفنائه وإعدامه.

وهذا التعهد يشمل بعموم معناه التغذية والتنمية ، والإرشاد والإصلاح ، والتقويم والحفظ ، والرعاية ، والتأديب ، والتهذيب ، والتعليم ، إذا كان المربوب يحتاج تأديباً وتهذيباً وتعليماً.

ويشمل أيضاً الإمداد المستمر بما يحتاج إليه لبقائه في الحياة ، أو بقائه في الوجود ، إلى غير ذلك من أموري يدركها الباحثون في مجالات التربية والتعليم والخلق.

ويشمل هذا التعهد الامتحان والمحاسبة وفصل الحكم والجزاء ، لمن هو مؤهل بتكوينه وخطة خلقه لهذه الأمور.

ويشمل أيضاً تصاريف العطاء والمنع ، والزيادة والنقص ، والإحياء والإماتة ، والبناء والهدم والتنكيس ، والإنماء والإفناء ، والإيجاد والإعدام ، وتصاريف النفع والضر ، وكل ما يجري في كل ما خلق الله من شئ من أحداث وتغيرات.

ونظراً إلى معنى التربية ذات الفروع الكثيرة المتشبعة ، ونظراً إلى لوازمها ، أطلقت كلة " الرب " في لسان العرب على معان كثيرة ، منها ما يلي :

" الملك – الأمير – السيد المطاع – مالك الشئ أو مستحقه – المدبر – القيم – المنعم – المصلح للشئ – المنمي للشئ ".

إلى غير هذه المعاني مما يشبهها ويدخل ضمن المفهوم العام للتربية.

اختيار الله في أعمال ربوبيته لخلقه

كل تصاريف الله في ربوبيته تجري على وفق سنة التدرج ترقية أو تنكيساً ، باستثناء المعجزات وخوارق العادات والكرامات الخوارق الخاصة ، فقد لا تخضع لنسة التدرج ، بل تجري كلها دفعة واحدة ، بأمر التكوين الرباني ، مثل إخراج ناقة صالح عليه

السلام من صخرة عينها قومه ، وكفلق البحر لموسى عليه السلام ، وكقلب عصاه حية تسعى .

ولله عز وجل حكم جليلة ، من إجراء خوارق العادات في أحيان قليلة ، على خلاف سنته في التدرج ، ومن هذه الحكم إثبات كمال قدرته ، ومنها تأييد رسوله بأنه صادق في ادعاء أنه رسول الله ، ومنها إكرام بعض عباده مكافأة معجلة لهم على ما قدموا من صالحات.

وقد اختار الله – جل جلاله وعظم سلطانه – بواسع علمه وعظيم حكمته لعمليات خلقه في ربوبيته للعالمين، وإبداعاته لمخلوقاته، وهيمنته على كل ما خلق بدءاً وإنشاء ودواماً وتنمية ، ثم تنكيساً فإفناء وإعداماً ، أن يكون على نظام الإنشاء التكاملي ، والتنكيس التناقصي.

هذه هي سنة الله في خلقه إلا ما شاء الله أن يستثنيه لحكمة من حكمه الجليلة.

ولم يختر الله عز وجل لعملياته هذه أن تكون على نظام الخلق دفعة واحدة، ثم ترك المخلوق يسير وفق البرنامج الموضوع له ، دون إمداد ورعاية وحفظ ورعاية من خالقه.

ولا على إنهاء وجود المخلوق دفعة واحدة.

لقد خلق الله عز وجل كل ما سواه وفق نظام لا يستغني فيه عن خالقه طرفه عين، ولا أقل منها، حتى أقل مقدار زمني، في كل صغير وكبير من ذات المخلوق وصفاته.

فلو رفع الله عز وجل إمداده عن كونه، وإمساكه له في الوجود ، ورعايته له وهيمنته عليه ، خلال أقصر زمن ، لعادت الموجودات كلها إلى أصلها وهو العدم.

هذا النظام الرباني هو نظام " التربية " بمفهومها العام الشامل ، للإنشاء والمراقبة والمحاسبة والافناء ، حتى الإعدام لو شاء.

دل على هذه الحقيقة قول الله عز وجل في سورة (فاطر ، ٥٣ ، مصحف ، ٤٣ نزول) :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً).

فربوبيـة الله لكـل خلقـه ذات تصـاريف تدريجيـة ، فـي حـالتي الترقيـة التكامليـة ، والتنكيس التناقصي.

فمن شاء أن يكون عمله أجرى نجاحاً ، وأعظم إنتاجاً وثمرة ، فلا مندوحة لـه من أن يتقيد بسنة الله في كونـه ، تدرجاً شيئاً فشيئاً ، في اتجاه ذروات الأشياء، أو تنكيساً وتنـازلاً دركـة فدركـة فـي اتجـاه الـدرك الأسـفل، فـي حالـة الـتخلص مـن الموجـودات الفاسدات الضارات.

هـذه هـي سـنة الله الحكيمـة ، فـي تصـاريفه فـي كونـه ، مـع أن الله – جـل جلالـه وعظمـة حكمتـه – لـو شـاء أن يخلـق الكـون كلـه مـن مسـتوى ذروات كائناتـه دفعـة واحدة، لخلقه بكلمة التكوين : " كن " فهو يكون بأقصر زمن في الوجود.

قال الله عز وجل في سورة (يس ، ٣٦ مصحف ، ٤١ نزول) :

(إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون (٨٣)).

وكذلك تحويل الكوت من الوجود إلى العدم ، لو شاء الله ذلك.

تطبيقات هذه السنة الربانية في الأكوان وفي تصاريف الله فيها

أينمـا اتجـه الباحـث المتأمـل فـي هذا الكـون الكبيـر ، بـدءا من ذاتـه وانطلاقا إلـى مـا يسـتطيع إدراكـه مـن الأرض والسـماوات ومـا بينهمـا، ومهمـا تفكـر فـي خلـق الله وتصـاريفه في كل شئ ، فإنـه يجد أن الله – جل جلالـه وعظمت حكمتهـ– يجري مقاديره على وفق سنة التدرج ترقية في اتجاه ذروات الأشياء ، أو تنكيساً إلى أوائلها الدنيا التي بدأت منها.

أمثلة

أولاً :

تدل الدلائل العلمية على أن الكون قد بدأه الله الخالق عز وجل بعلمه الشامل، وحكمته السنية ، وقدرته على ما يشاء ، من أبسط الذرات وأدناها في الخلق ، فكان الكون سديماً.

وضمن سنة الإنشاء المتدرج ترقية إلى الذروات المقدرات والمقضيات للأشياء ، قبل بدء الخلق سارت أعمال الخالق وتصاريفه الحكيمة ، بإبداء مدهش ، يدل على أنه – جلا جلاله وعظمت حكمته – بديع السماوات والأرض ، وهو العليم الحلم القدير.

حتى تم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أي : في ستة أحقاب زمنية لا نعلم مقدار كل حقبة منها ، وقد تكون ملايين السنين مما نعد أو أكثر. وقد جرى هذا الخلق متتابع الأطوار ، ضمن نظام التربية والإنماء المتدرج. ومن الملاحظ أن أحداث التنكيس المتدرج في الكواكب والنجوم والمجرات ، وفي عناصر الأرض، هي السمة العامة الدالة على سنة الله في الخلق ، وفي كل تصاريفه في كونه.

ثانياً : من المشاهد دواماً أن الشجرة العظيمة من كل الأنواع والأصناف، وتنازلاً حتى أصغر نبتة تنبت في الأرض، يجري إنباتها إنشاء متدرجاً ، بدءاً من النواة الصغرى للنبات ، ويتنامى النبات تنامياً تصاعدياً على وفق نظام التدرج والتدريج ، حتى بلوغ النبات ذروته المقدرة له ، درجة صغرى ، فدرجة صغرى ، وطوراً فطوراً ، وضمن العمر المقدر في خطة الخلق لنوع النبات.

ثم يأتي التنكيس في الخلق ، ضمن سنة التناقص التدريجي شيئاً فشيئاً ، وضمن العمر المقدر لنوع النبات في خطة الخلق ، وعلى وفق ما قدر الله له وقضى من تنازل تنكيسي، حتى عودته إلى ما كان عليه قبل خلقه.

ويأتي الإفناء ، وإعادة الشئ إلى عناصره الأولى قبل خلقه ، ضمن سنة التدرج التنكيسي التنازلي شيئاً فشيئاً.

ولكل نوع نبات نظام إنماء ، حتى بلوغه ذروة كماله ، ونظام تنكيس حتى إبلاغه إلى ما كان عليه قبل إنباته.

ثالثاً : ومن المشاهد دواماً أن الكائنات الحية يجري تكوينها ضمن نظام الإنشاء المتدرج ، إذ يبدأ خلقها من نوياتها الصغرى المجهرية أو ما دون المجهرية ، حتى تصل إلى صور الخلية الأولى ، وهذه الخلية تنتقل في أطوار الخلق حتى تنعقد في الأرحام ، وتتصاعد مترقية في أطوارها ، حتى تبلغ ما قدر الله لها وقضى من درجة كمال، بحسب درجة كمال كل نوع أو صنف من أنواع وأصناف مخلوقات الله من الكائنات الحية.

ثم يأتي التنكيس ضمن سنة التناقص شيئاً فشيئاً، وعلى وفق العمر المقدر للكائن الحي، وعلى وفق ما قضى الله له من تنازل تنكيسي حتى موته ، ثم فنائه.

ومن الكائنات الحية الإنسان، وتجري فيه سنة التنكيس بقضاء الله وقدره ، إذا أطال الله عمره ، فبلغ الشيخوخة فما بعدها .

قال الله عز وجل في سورة (يس ، ٣ مصحف ، ٤١ نزول) :

(من نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعلقون (٦٨)).

وبعد الموت يجري إفناء أجساد الموتى ، ضمن سنة التنكيس التدريجي، حتى تعود إلى ما كانت عليه قبل إنشائها مرقاة ترقية تدريجية.

رابعاً : كان من الممكن أن يخلق الله عز وجل جميع الناس الذين قضى في خطة التكوين أن يخلقهم دفعة واحدة ، يوم خلق آدم ، وأن يضعهم موضع الامتحان في عصر زمني واحد ، ثم ينهي الحياة الدنيا عقب هذا العصر، ثم يبعث الناس ، ويحاسبهم ، ويفصل القضاء بينهم ، ثم يجازيهم بحسب نتائج امتحانهم.

لكن الله – جلت حكمته وعظم سلطانه – قد بدأ خلق الناس بخلق آدم أبي البشر ، وجعل إيجاد الناس بالتتابع التكاملي ضمن نظام التناسل ، وجعل لكل إنسان عمراً يجري امتحانه فيه ، وجعل لكل جيل من الناس عمراً ، وجعل الأجيال يخلف بعضها بعضاً ، في أحقاب متلاحقة حتى يولد آخر إنسان قضت به خطة الخلق الرباني ، وحتى يأتي أجل قيام الساعة.

وكان لسنة التدرج في خلق أجيال البشر ، بالتتابع المتلاحق في ألوف القرون ، حكم جليلة جداً ، يدركها المطلع على التاريخ البشري، العلاقات فيما بينهم ، وتطور الناس في أجيالهم عبر ألوف الأحقاب، وفي ترقيهم ترقياً تدريجياً عملياً ، وثقافياً وحضارياً ، وعملياً ، من مرحلة كان سلوكهم فيها سلوكاً بدائياً جداً في أولى درجات السلم الحضاري، حتى وصلوا إلى ذروات حضارة عظمة ، توصلوا فيها إلى معرفة كثير من كوامن الأرض من ثروات وقوى ، واستخدموا كثيراً مما سخر الله لهم فيها ، وجابوا أجواء السماء الدنيا ، ووصلوا إلى القمر ، وهم في محاولات الوصول إلى المريخ.

ولولا الارتقاء التدرجي التراكمي في أحقاب الزمن مع الدأب والمتابعة ، لما بلغوا هذه الذروات ، ولما ظهرت شبكة العلاقات السلمية والحربية فيما بينهم . الأمر الذي يستدعي وضع قوانين وأنظمة لعلاقاتهم ، ووضع أحكام لأنواع سلوكهم الفردي والاجتماعي.

الفصل الخامس

التدرج التشريعي في الرسالات الربانية

للناس وفي الرسالة الخاتمة

أولاً :

مراعاة لواقع التدرج البشري الارتقائي ، أنزل الله للناس رسالاته بما يلائم مراحل تطورهم الارتقائي ، متدرجة تدرجاً تكاملياً ، من عهد آدم عليه السلام ، حتى بعثة النبي محمدﷺ ، إذ تمم الله ببعثته المكارم والمحاسن وفضائل السلوك الإنساني ، مطابقة للتدرج البشري.

دل على هذا المعنى ما رواه البخاري ومسلم واحمد والترمذي عن جابر وعن أبي هريرة ، أن النبي ﷺ قال :

" مثلي في النبيين كمثل رجل بني داراً ، فأحسنها ، وأكملها ، وأجملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون في البنيان ، ويعجبون منه ويقولن ك لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة".

ومن مراعاة أحوال البشر في أجيالهم في الرسالات الربانية ، أن الله حرم على اليهود طيبات ليس من خطته في الدين الذي اصطفاه لعباده ، أن يحرمها على سائر الناس.

قال الله عز وجل في سورة (النساء ، ٤ مصحف ، ٩٢ نزول) : (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً (١٦٠) وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما (١٦١)).

ولما أرسل الله عز وجل عيسى عليه السلام ، أحل في رسالته بعض ما حرم على بني إسرائيل في رسالته لموسى عليه السلام.

قال الله عز وجل في سورة (آل عمران ، ٣ مصحف ، ٨٩ نزول) في معرض الحديث عن عيسى عليه السلام : (ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من

ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمة والأبرض وأحيي الموتى بإذن اله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين (٤٩) ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون(٥٠)).

ولما بعث الله خاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت رسالته عامة للناس أجمعين ، واشتملت على إباحة كل الطيبات وتحريم الخبائث ، ووضع التكاليف الثقيلة التي كانت على بني إسرائيل ، مراعاة للتطور البشري عامة ، وما يلائم الناس جميعاً.

قال الله عز وجل في سورة الأعراف ، ٧ مصحف ، ٣٩ نزول) :

(واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون (١٥٦) الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه وابتعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون (١٥٧)).

وتتبع التدرج في رسالات الله للناس، يحتاج دراسة استقرائية تتبعية واسعة، ولا شك أن هذه الدراسة ستكشف حكمة الله السنية ، في تنزيل رسالاته ملائمات لواقع أحوال التطور البشري، وعلاقات الناس السليمة والحربية، التي تكاملت في الأحقاب الزمنية والأجيال المتتابعة.

ثانياً : تنزيل القرآن المجيد كان منجماً تنجيماً تكاملياً عجيباً في بناء المعرفة الدينية، وفي التربية للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وفي معالجة الكافرين على اختلاف مواقع بعدهم أو قربهم من الاستجابة للحق ، وفي الجدليات والمناظرات والإقناعات ، وفي إنزال الشرائع والأحكام على وفق سنة التدرج بحسب الأولويات.

فعلى متدبر كتاب الله المجيد أن يجتهد في تتبع مراحل تنزيله ، مستفيداً مما ذكره العلماء بالتنزيل من ترتيب نزول السور ، ويعرف في السورة الواحدة بترتيب الآيات فيها ، ما لم يرد نص بخلاف ذلك ، كأن يثبت تقدم آية أو عدد من الآيات ، أو يثبت تأخر نزولها عن نزول السورة ، فعندئذ يتبع ما ثبت في النص المبين لتقدم النزول أو تأخره.

وقد يعرف ترتيب النزول بالتبصر العقلي الهادي إلى قواعد سنة الله ، التي جرى على وفقها إنزال معظم النصوص القرآنية وأحكام التشريع.

إن مراعاة مراحل التنزيل المنجم وملاحظتها لدى التدبر ، تحمي من أخطاء تفسيرية قد يقع بها بعض المفسرين ، فبعضهم قد يأتي بقصص مدنية ، فيضعها شرحاً أو سبباً لنص مكي ، ويحمل بذلك النص القرآني ما لا يحمل ، وقد يقع من جراء ذلك في خطأ فادح .. وقد يأتي بعض المفسرين بحادثة مكية فيجعلها سبباً لنزول نص مدني التنزيل دون أن تكون له علاقة ما بهذه الحادثة.

إن النصوص المتأخرة نزولاً في الأحكام والتشريعات هي الأحق بأن تكون عمدة الأحكام والتشريعات النهائية ، إن كانت معرضة تماماً لما نزل قبلها ، كالآيات الناسخة.

أم إذا لم تكن معارضة تماماً فهي مكملة أو مبينة لما نزل قبلها. فقد تكون مبينة للمراد ، وقد تكون مقيدة مطلقاً ، أو مخصصة عموماً ، أو مثبتة حكماً لم تثبته السابقة أو السابقات لها ، أو مبينة انتهاء العمل بحكم ما سبقها من نصوص ، أو مكملة لأحكام أو دلالات لم تستوفها ما سبقها من نصوص عن قد ، التزاماً بحكمة التدرج في التعليم ، وفي التربية ، وفي التشريع .

وتتبع مراحل النزول للنصوص التربوية والعلاجية ، يكشف للباحث عن التدرج في الخطوات التربوية الحكيمة.

أما التكرير المطابق في العلاج التربوي ، فالغرض منه أن يكون له تأثر في النفوس ، وأن تحصل به الفائدة ، كالعلاج الدوائي في مجال الصحة الجسدية.

إن النصـوص التربويـة والعلاجيـة ذوات مراحـل تدرجيـة تلائـم الحالـة النفسـية والاجتماعية للفرد ، أو للمجموعة البشرية التي تتوجه لهم بها أساليب التربية القرآنية.
وكذلك النصوص الحركية في طرائق الإصلاح ، ووسائل وأساليب الدعوة ، وألوان وصنوف الجهاد.
بخلاف النصوص الخبرية عن الكون ، والنصوص التي تبين مسائل العقائد وأصول الدين الكلية العامة ، فالمرحلية فيها مرحلية بيان تعليمي تدرجي،وليست مرحلية تدرج تربيو تكليفي ، حتى يعتبر العمل باللاحق هو الأمر المستقر، بل كلها ذوات دلالات مقصودات على الدوام ، واللاحق منها يضم إلى السابق ، وتفهم معاً كأنها أنزلت دفعة واحدة ، فهي متكاملة في دلالاتها يكمل بعضها بعضاً.
إن تدبر القرآن مع مراعاة مراحل التنزيل ، وملاحظة ترتيب نزول الآيات، يجلب نفعاً كبيراً للمتدبر، فهو يهديه إلى مفهومات جليلات تتصل بحكمة التدرج ، وبمعرفة الغالية من التكرير إذا وجد في القرآن دون فرق بين النصوص اقتضاه غرض التكامل.
والمتدبر الذي لا يلاحظ ترتيب نزول النصوص القرآنية ، كما جاء في بيانات ترتيب النزول ، لا يستطيع إدراك الإحالات القرآنية على ما سبق في النزول ، ولا يستطيع معرفة التدرج في الأحكام، ووسائل وأساليب التربية ، وعلميات التكامل الفكري في الموضوعات القرآنية ، ولا معرفة الناسخ والمنسوخ إن وجد ، وقد يقع في أخطاء فاحشة لا تليق بمن يتدبر كتاب الله المجيد.
أمثلة
المثال الأول :
متتبع ترتيب نزول سور الكتاب العزيز يلاحظ حكمة الله عز وجل بالبدء بتأسيس قضايا الإيمان ، مع قضايا الأخلاق الاجتماعية ، وأهمها العطف على ذوي الضرورات والحاجات ، كالفقراء والمساكين واليتامى والأسرى الأرقاء ، ومن لا معيل لهم.

فالصلاة المعبرة عن ارتباط العبد بربه بعد الإيمان، مع تحريم الفواحش، فالزكاة بشكل عام، قبل تحديد مقادير الواجب منها ، مع تحريم أكل اموال الناس بالباطل ، ومع القيام بواجب الدعوة إلى الله . ثم الصيام في أوائل العهد المدني بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

والجهاد في سبيل الله بالقتال.

ثم تحريم الخمر والخبائث من المطاعم والمشارب.

ثم الحج والعمرة والعمل على نشر الإسلام.

وكان في أواخر ما نزل من أحكام المعاملات تحريم الربا تحريماً قطعياً. ويدلنا على سياسة التدرج في بيانات الدين بحسب الأولويات ، عدة أحاديث وآثار هاديات ، منها ما يلي :

(١) روي مسلم في صحيحة عن أبي أمامة قال : قال عمرو بن عبسة السلمي : كنت وأنا في الجاهلية أظن الناس على ضلالة ، وأنهم ليسوى على شئ وهم يعبدون الأوثان ، فسمعت برجل بمكة خبر أخباراً ، فقعدت على راحلتي ، فقدمت عليه ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفياً ، جراء عليه قومه ، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة ، فقلت : ما أنت ؟

قال : " أنا نبي " .

فلت : " ما نبي ؟

قال : " أرسلني الله " .

فقلت : وبأي شئ أرسلك ؟

قال : " أرسلت بصلة الأرحام ، وكسر الأوثان ، وأن يوحد الله لا يشرك به شئ".

(٢) وروي البخاري عن الزهري قال : أخبرني سعيد بن المسيب عن أبيه ، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده ابا جهل ، وعبدالله بن أبي أمية فقال :

" أي عم ، قل لا إله إلا الله كلمة التوحيد ، لأن بها نجاته من الخلود في عذاب النار ، فهي أولى الأولويات ، بالنسبة إلى عمه في هذه الحالة ، التي هو عليها على مقربة من عتبة الموت ، وهي الخطوة الواجبة الأولى للدخول في الإسلام.

(٣) وروي البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس : أن أبا سفيان أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، فقال أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم به نسباً " .

وفي الحديث أن هرقل سأله عدة أسئلة عن النبي ﷺ ، وأجابه أبو سيفان بصدق عنها، ومنها أنه سأله : بماذا يأمركم ؟

قال أبو سفيان : قلت : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والزكاة ،والصدق، والعفاف ، والصلة.

من حيث طويل ، وقد جاء في أواخره ، أن هرقل قال لأبي سفيان : فإن كان ما تقول حقاً ، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم.

(٤) ولما هاجر بعض المسلمين من مكة إلى الحبشة للخلاص من اضطهاد مشركي مكة ، وأرسل كبراؤهم وفداً إلى النجاشي مصحوبين بالهدايا، رجاء أن يسلمهم من هاجر منهم إلى بلده ، دعا النجاشي المهاجرين إليه ، ليسألهم عن سبب هجرتهم ، وعن الرسول الذي آمنوا به مخالفين ملة قومهم ، وكان جعفر بن أبي طالب هو المعبر عن المهاجرين.

وحين سأل النجاشي ملك الحبشة يؤمئذ عن دعوة الرسول محمد ﷺ ، وبماذا يأمرهم.

فكان مما قاله جعفر رضي الله عنه : " فأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ".

كما ذكر علماء السيرة كابن هشام .

(٥) وروي البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، أنها قالت (من حديث):

" ... إنما نزل أول ما نزل من القرآن سور من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نظل أول شئ : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ، ولو نزل : لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً ".

المثال الثاني :

(حول التدرج في تحريم الخمر).

جاءت النصوص بشأن الخمر متدرجة تدرجاً تربوياً حكيماً ، حتى جاء النص الختامي قاطعاً في التحريم ، وفيما يلي البيان المطلوب :

أولاً : في العهد المكي جاء التلويح بأن صفات الرسول محمد ﷺ ، أنه يحل لأمته الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، وقد جاء هذا في أواسط السور التي نزلت في العهد المكي :

* ففي سورة الأعراف ، ٧ مصحف ، ٣٩ نزول) نزل قول الله عز وجل ، في معرض الحديث عن بني إسرائيل ،وما يجب عليهم من الإيمان بالرسول الخاتم المبشر به حتى تشملهم رحمة الله : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون (١٥٧).

ومعلوم أن أهل العقل والرشد يدركون من ملاحظاتهم ، أن الخمر هي من الخبائث ، فعليهم أن لا يشربوها .

فكان في هذا النص تلويح باجتنابها ، يدركه أهل الفطانة .

* ثم أنزل الله عز وجل في العهد المكي ، تلويحاً أقوى من التلويح السابق ، فقال الله عز وجل في سورة (النحل ، ١٦ مصحف ، ٧٠ نزول) : (ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون (٦٧).
يلاحظ المتفكر اللماح ، في وصف أن ثمرات النخيل والأعناب ، منها ما هو رزق حسن ، ومنها ما يتخذه الناس بالتخمير سكراً ، دون وصفه بانه حسن ، تلويحاً بأن السكر ليس رزقاً حسناً ، إذ لو كان في شربه نفع يقصد لكان رزقاً ، ولدخل في عموم الرزق.

وإذ ترك السكر في الآية دون وصف ، مع وصف الرزق بأنه حسن ، فلا بد أن يدرك المتفكر اللماح أن السكر لا يستحق أن يوصف بالحسن ، وفي هذا توليح بانه من صنف الخبائث .

ولكن في تحول هذه الثمرات ، بالتخمير إلى مواد مسكرة ، دليل على أحكام القوانين المنظمة للكون بتدبير الخالق ، ومن أجل الإشارة إلى هذا ختم الله عز وجل الآية بقوله : " .. إن في ذلك لآية لقوم يعقلون " .وهذه الآية قد وردت في معرض لفت الأنظار إلى ظواهر صنعة الخالق في كونه ، للاستدلال بها على حكمة الخالق الرب جل جلاله ، وعلمه الشامل ، وقدرته على ما يشاء ، وعنايته بعباده ، ورحمته وجوده ، وأنه المهيمن على كل شئ.

* ثم نزل في أوائل العهد المدني من تاريخ بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التمهيد الصريح للتحريم.

فأنزل الله عز وجل في سورة (البقرة ، ٢ مصحف ، ٨٧ نزول) أول سورة مدنية ، قوله تبارك وتعالى :

(يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ... (٢١٩).

وبقليل من التأمل يلاحظ المتفكر المتدبر أن ما إثمه أكبر من نفعه ينبغي أن يكون حراماً ، فهو من هذا البيان القرآني يصل بنفسه إلى حكم بتحريم الخمر، ولو لم يأت

فيه تصريح بهذا التحريم، فما زاد ضره على نفعه، فعلى أهل الفكر الثاقب والرأي الحصيف، أن يجتنبوه ، لأنهم يعلمون من حساب الربح والخسارة أن من شر الخمر وأدمن عليه كان خاسراً ، فهم لا يمارسون عملاً يكونون فيه خاسرين.

ولها ختم الله عز وجل هذه الآية بقوله :

(.... كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون (٢١٩)).

* ثم أنزل الله عز وجل في سورة (النساء ، ٤ مصحف ، ٩٢ نزول) قوله : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ...(٤٣)).

فجاء هذا النص صريحاً في تحريم شرب الخمر في أوقات الصلاة، أو في تحريم الشرب المسكر في هذه الأوقات، مع بقاء التلويح بالابتعاد عنه ابتعاداً كلياً.

ولما كان من شأن النص السابق أن يكون داعياً إلى الامتناع عن شرب الخمر ولو لم يكن صريحاً في التحريم، كان من الحكمة أن يأتي في آخر هذه الآية من سورة (النساء) قول الله عز وجل : (...... إن الله كان عفواً غفوراً (٤٣)).

ومعلوم أن التعريض بالعفو والغفران إنما يكون عد الإشعار بارتكاب الإثم، ومثل كبار الصحابة كان يكفيهم الدليل الاستنباطي ، حتى يمتنعوا ، لا أن يكونوا كآحاد الناس بحاجة إلى نصوص صريحة وواضحة في التحريم.

* وأخيراً أنزل الله عز وجل قوله في سورة (المائدة ، ٥ مصحف ، ١١٢ نزول) وهي من أواخر ما نزل من سور القرآن المجيد : (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون (٩٠) إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون (٩١) وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين (٩٢)).

فجاء هذا النص الختامي نصاً قاطعاً صريحاً في التحريم ، وبعد أن نزل وتلاه الرسول صلى الله عليه وسلم على أصحابه قال عمر بن الخطاب :

انتهينا يارب انتهينا ، وكان قبل ذلك يقول اللهم أنزل لنا في الخمر بياناً شافياً ، وكان يدرك لزوم تحريم الخمر تحريماً قطعياً.

المثال الثالث : (حول التدرج في تحريم الربا) :

لم ينزل تحريم الربا من أول الأمر دفعة واحدة ، وإنما اقتضت حكمة الله جلال جلاله في تحريمه اتباع سنة التدرج.

ومن تتبع النصوص القرآنية بحسب مراحل التنزيل ظهر لي ما يلي :

أولاً : في أواخر دور الدعوة المكية من تاريخ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، ألمح الله عز وجل إلى أن الربا تعامل لا يبارك الله فيه ، ولا يحمد فاعليه، فأنزل في سورة (الروم ، ٣ مصحف ، ٨٤ نزول) قوله تبارك وتعالى : (وما آتيم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون (٣٩)).

يربو : أي : ينمو ويزيد .

فكان ما جاء في هذه الآية تمهيداً لما جاء بعده من بيان أكثر وضوحاً، وإشعاراً بأن الخطة الربانية سائرة على طريق إعلان تحريم الربا تحريماً قاطعاً.

ثانياً : وفي أوائل العهد المدني أنزل الله عز وجل في سورة (آل عمران ، ٣ مصحف ، ٨٩ نزول) وهي ثالث سورة مدنية قوله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) واتقوا النار التي أعدت للكافرين (١٣١)).

فجاء في هذه الآية نهي صريح عن التعامل بالربا الذي كان معروفاً في الجاهلية ، الذي تصل فيه المستحقات الربوية إلى أضعاف مضاعفة، وجاء فيه التحذير من عذاب النار.

ولكن لم يكن هذا النص صريحاً في تحريم أكل الربا وإن قل.

ثالثاً : ثم أنزل الله عز وجل ذم اليهود والتشنيع عليهم بأكلهم الربا وقد نهوا عنه ، وعمم الربا فلم يصفه بالأضعاف المضاعفة كما جاء في الخطوة الثانية من البيان بشأن الربا.

وهنا يتردد الفكر ، هل هو كل الربا وهو الأرجح ، أو هو ما كان منه أضعافاً مضاعفة؟

فقال الله عز وجل في سورة (النساء ، ٤ مصحف ، ٩٢ نزول) سادس سورة من التنزيل المدني : (**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيراً {١٦٠} وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا {١٦١}**) .

وكان هذا النص إنذاراً بأن المخالفين سيصيبهم نظير ما اصاب اليهود من قبل من صنوف عقاب.

رابعاً : ثم أنزل الله عز وجل النص الأخير القاطع بتحريم الربا كله قل أم كثر، وكان هذا آخر أو من أواخر ، ما نزل من القرآن المجيد ، ضم إلى أول سورة من سور التنزيل المدني ، للدلالة على أن خطة التحريم القطعي الشامل لكن الربا قليلة وكثيرة، خطة كان من مقتضى إنشاء الدولة الإسلامية في المدينة أن يكون هذا التحريم من أحكام نظامها الاقتصادي منذ تأسيسها، ولكن حكمة التدرج في التنفيذ اقتضت تأخير إنزال النص التحريمي القاطع إلى أواخر المرحلة المدنية ، وبع أن ثبتت قواعد الدولة الإسلامية .

فقال الله عز وجل في سورة (البقرة ، ٢ مصحف ، ٨٧ نزول) : **الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {٢٧٥} يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ {٢٧٦} إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**

{٢٧٧} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ {٢٧٩} وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٢٨٠} وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ {٢٨١})

روي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم آية الربا ".

وحكى ابن رشد في المقدمات عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : " كان من آخر ما أنزل الله على رسوله آية الربا .... ".

المثال الرابع : (حول التدرج في أحكام الجهاد في سبيل الله من جهاد الدعوة إلى جهاد القتال الفاتح).

كتبت في كتابي " بصائر للمسلم المعاصر " باباً في الجهاد في سبيل الله من ثلاثة فصول ، وقد استقرأت في هذا الباب آيات الجهاد في سبيل الله بالدعوة ، وبالقتال ، وتدبرت هذه الآيات تدبراً تكاملياً حركياً بحسب ترتيب النزول ، وظهرت لي بهذا التدبر سنة التدرج الحكيم ، منذ أوائل بعثة الرسول ﷺ حتى آخر مراحل حياته الجهادية ، وكتابة هذا الباب مع الإيجاز أخذت (٧٧) صفحة .

وأكتفي في هذه الرسالة بنقل كلام لخص فيه ابن القيم التدرج في الجهاد بكتابة " زاد المعاد " إذ أبان فيه ترتيب هدي الرسول ﷺ مع الكفار والمنافقين :

* أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته – فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ".

* ثم أنزل عليه : (يا أيها المدثر) (٧٤ مصحف / ٤ نزول).

فنبأه بقوله : (إقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر).

- ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين .
- ثم أنذر قومه .

- ثم أنذر من حولهم من العرب.
- ثم أنذر العرب قاطبة.
- ثم أنذر العالمين.

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة من غير قتال ، ولا جزية ، ويؤمر بالكف ، والصبر ، والصفح .

- ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال.
- ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.
- ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.
- ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام :

(أ) أهل صلح وهدنة .

(ب) وأهل حرب.

(ج) وأهل ذمة.

فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ، ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد.

وأمر أن يقاتل من نقض عهده .

* ولما نزلت سورة (براءة) نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها ، فأمره أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم.

فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان.

وأمره بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم .

وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام :

- قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم ، وظهر عليهم.

- وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ، ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم.
- وقسماً لم يكن له عهد ، ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسخلت قاتلهم ....

فقاتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته ....).

المثال الخامس : (حول التدرج الارتقائي في اسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل).

جاء إعلام أئمة الشرك والكفر في مكة بإهلاك كفار القرون السابقة ، تلويحاً بالإنذار ، ثم تذكيراً به ، في نجو التنزيل حتى نزول سورة (ص) ست مرات.

ويلاحظ المتدبر ، أنه قد جاء التعبير عنه في هذه النصوص الستة منتدرجاً تدرجاً ارتقائياً ، في أسلوب البيان المختار.

وفيما يلي استعراض لما جاء في هذه النصوص من التنبية على ما فيها من تدرج.

(١) جاء هذا البيان أولاً بأسلوب العرض الاستفهامي خطاباً موجهاً لشخص غير معين ، فهو يشمل كل متلق على سبيل الخطاب الإفرادي.

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في وسورة (الفجر / ٨٩ مصحف ، ١٠ نزول).

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ {٦} إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ {٧} الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ {٨} وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ {٩} وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ {١٠} الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ {١١} فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ {١٢} فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ {١٣} إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ {١٤}).

(٢) ثم جاء هذا البيان بأسلوب العرض الخيري بشأن إهلاك أصحاب الأخدود ، وقد جاء هذا العرض الخبري متسماً بالعنف والشدة.

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (البروج ، ٨٥ مصحف ، ٢٧ نزول) :

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ {٤} النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ {٥} إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ {٦} وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ {٧} وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {٨} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {٩}).

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام العتابي الموجه للمكذبين الذين كذبوا الرسول ﷺ ، وكذبوا بيوم الدين ، بصفة عامة .

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (المرسلات ، ٧٧ مصحف ، ٣٣ نزول) :

(ألم نهلك الأولين (١٦) ثم نتبعهم الآخرين (١٧) كذلك نفعل بالمجرمين (١٨٥)).

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عن كفار مكة صراحة ، مع التلويح بالإنذار بإهلاكهم إذا وصلت أحوالهم إلى مثل الأحوال التي وصل إليها المهلكون السابقون.

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في سورة (ق ، ٥٠ مصحف ، ٣٤ نزول) :

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ {١٢} وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ {١٣} وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ {١٤}).

وقل الله عز وجل فيها أيضاً : (وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص (٣٦)).

(٥) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عنهم مع التلويم والتثريب، إذ لم يتعظوا ولم يزدجروا، على الرغم من أنهم قد جاء من الأنباء ما فيه مزدجر.

وهو ما جاء في قول الله عز وجل في صورة (القمر ، ٥٤ مصحف ، ٣٧ نزول) :

(ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥)).

وبعد هذا جاء في هذه السورة عرض فيه بعض تفصيل لقصص بعض المهلكين الأولين.

(٦) ثم جاء هذا البيان في سورة (ص، ٣٨ مصحف ، ٣٨ نزول) مشابهاً لما جاء في سورة (ق، ٥٠ مصحف ، ٣٤ نزول) ولكن جاء في سورة (ص) زيادة تأكيد في

اللفظ ، وإضافةفكرة أن المهلكين السابقين، نادوا حين أنزل الله عز وجل بهم وسائل إهلاكهم مستغيثين ، فلم يستجب أحد لندائهم، ولم يكن لهم مناص من تلقي عذاب الله العادل.

فقال الله عز وجل فيها : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص(٣)).

فجاء في سورة (ص) : (من قبلهم) بإظهار حرف "من" أما في سورة (ق) فجاءت العبارة : " قبلهم ".

وجاء في سورة (ق) : (هل من محيص) . أما في سورة (ص) فقد جاءت العبارة : " فنادوا ولات حين مناص ".

فتكامل النصان مع الترقي في البيان .

ويستفيد الباحثون في علم التربية ، من هذا المنهج التدرجي الارتقائي الرباني ، فوائد جمة.

واقتصر على هذه الأمثلة في هذه الرسالة ، إذ تتبع الأمثلة القرآنية حول سنة الله عز وجل في التدرج، التعليمي ، والتربوي ، والتشريعي، والتطبيقي ، وغير ذلك قد يملأ عدة مجلدات .

الفصل السادس

التدرج في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

لدينا حالتان :

الحالة الأولى : حالة مجتمع إسلامي ، في بيئة إسلامية طال عهدها في نظام دولة إسلامية ، تطبق ما تعلم من أحكام الشريعة الإسلامية ، بطواعية وانقياد ، وقد ذاق أفراده حلاوة الاستقرار والأمن في ظل تطبيقات أحكام الإسلام.

الحالة الثانية : حالة من يدخل حديثاً في الإسلام، من الأفراد، أو الجماعات قبائل أو شعوباً ، وكذلك من هو بعيد عن المجتمع الإسلامي.

أولاً :– أما الحالة الأولى فينطبق عليها ما كان عليه مجتمع أصحاب الرسول ﷺ من حوله في المدينة، وكل مجتمع مسلم تماثل حالته مجتمع أصحاب الرسول من حوله، فأسوته وقدوته هذا المجتمع.

وقد كان التدرج في تطبيق الأحكام الشرعية على مجتمع أصحاب الرسول من حوله، مسايراً تماماً للتدرج في التشريع.

فكان الحكم الشرعي إذا نزل به البيان الرباني، أو نطق به الرسول ﷺ ، يأخذ طريقه إلى التطبيق طواعية أو إلزاماً دون تأخير ولا تأجيل ، إلا ما كان من الأعمال مؤقتاً كصيام رمضان، أو مطلوباً على التراخي كالحج ، أو متوقفاً على توجيه أمر الإمام الأعظم للمسلمين، كالقتال في سبيل الله.

وكان كل من بلغه الحكم الشرعي من المسلمين المستقرين في الإسلام، الذين ذاقوا حلاوة الاستقرار فيه، وصحبوا الرسول ﷺ، يسارع إلى تطبيقه طائعاًُ مختارً ، أو مسوقاً بسلطان الدولة الإسلامية ، أو بتأثير البيئة الإسلامية الضاغطة إلى التطبيق، ولو لم يكن للمخالفة عقاب محدد ينفذه السلطان المسلم.

وكان الرسول ﷺ يتابع نفسه أحياناً تطبيقات الحكم الشرعي داخل مجتمعه. وكان المأمورون من أصحابه بمتابعة التطبيق في الناس، يقومون بمراقبة الناس، وحملهم على التطبيق، إذا كان من الأعمال الظاهرة، الصالحة للمتابعة العلنية.

ومن هنا ظهر في المجتمع الإسلامي ما يسمى بنظام الحسبة.

- فمن أمثلة متابعة الرسول ﷺ ،**ما رواه مسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم، عن أبي هريرة :**

أن النبي ﷺ مر في السوق على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً ، فقال : (ما هذا يا صاحب الطعام ؟).

قال : يا رسول الله أصابته السماء.

قال : " أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ من غشنا فليس منا " .

- **ومن أمثلة متابعة غير الرسول ﷺ من أصحابه ، ما رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال :**

كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة ، وكان خمرهم يؤمئذ الفضيخ ، فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي : ألا إن الخمر قد حرمت .

قال : فقال أبو طلحة : أخرج فأهرقها ، فخرجت فهرقتها ، فجرت في سكك المدينة.

فقال بعض القوم : قد قتل قوم وهي في بطونهم ، فأنزل الله : (لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)) **(المائدة ، ٥ مصحف ، ١١٢ نزول).**

ثانياً : وأما الحالة الثانية : وهي حالة من يدخل في الإسلام حديثاً ، من الأفراد أو الجماعات ، وكذلك من هو بعيد عن المجتمع الإسلامي، فأسوتنا بالنسبة إليه فعل الرسول ﷺ وبياناته.

*** أما الفعل الرسول فقد كان يدعو أولاً إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له في ربوبيته ، وإلى عباده وحده لا شريك له في إلهتيه ، ثم يأمر من استجاب لذلك بالصلاة ، ثم بالزكاة ثم ببقية أركان الإسم بالتدريج، وينهي عن الكبائر الكبرى كالقتل بغير حق، والزنا ، وأكل أموال الناس بالباطل، ويحذر من الظلم والبغي والعدوان.**

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلطف بالوافدين إليه من البلاد النائية ، فيخفف عنهم من بيانات التكاليف الدينية ترفقاً بهم ، ومراعاة لأحوالهم ، وأحوال بيئاتهم.

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن طلحة بن عبيد الله ، قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ، ثائر الرأس ، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول ، حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ " خمس صلوات في اليوم والليلة".

فقال : هل على غيرها ؟

قال : " لا إلا أن تطوع ".

قال رسول الله ﷺ :" وصيام رمضان ".

قال : هل على غيره ؟

قال : " لا إلا أن تطوع ".

قال : وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة.

قال : هل على غيرها ؟

قال : لا إلا أن تطوع.

قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

قال رسول الله ﷺ : " أفلح إن صدق ".

وفي رواية : " دخل الجنة إن صدق " .

وكان الرسول ﷺ **يقتصر لدى المبايعة على الكليات الكبرى من الدين. روي البخاري عن جرير بن عبدالله قال :**

" **بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والسمع والطاعة ، والنصح لكل مسلم ".**

*** وأما بيان الرسول ﷺ الكاشف لترتيب الأولويات، في الدعوة إلى الدخول في الإسلام ، والمطالبة بتطبيق أحكام شرائعة ، فحسبنا فيه هديه لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن.**

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن فقال : " أدعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس

صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك ، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم ، وترد على فقرائهم " .

وجاء في رواية أخرى أنه قال له :

" إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فيكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم ، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم وكاة من أموالهم وترد على فقرائهم ، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس ".

ولهذا الحديث روايات أخرى عند البخاري ، ومسلم ، وابن حبان ، وابن خزيمة ، وسنن البييهقي الكبرى ، وسنن الدارقطني ، بألفاظ متقاربة مؤداها واحد.

وهي كلها تدل على التدرج في التطبيق بسب الأولويات ، ولا تأذن للداعي بتوجيه أحكام الشريعة الإسلامية دفعة واحدة .

توقف التدرج في التشريع بعد كمال الدين دون التدرج في التطبيق وإذ توقف التدرج في التشريع بعد أن أكمل الله للمؤمنين دينهم ، إذ أنزل يوم الجمعة في حجة وداع الرسول ﷺ ، **والناس معه وقوف في عرفة قوله تبارك وتعالى في سورة " المائدة ، ٥مصحف ، ١١٢ نزول) : (... اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا .... (٣)).**

فالدين دين الله ، والحكم فيه له وحده ، والمسلمون ولو أجمعوا قاطبة لا يملكون تأخير إيجاب ما أوجبه الله في شريعته، أو تأخير تحريم ما حرمه الله في شريعته لعباده.

ولكن لم تتوقف سياسة التدرج في التطبيق ، إذا كان حال الناس يقتضي ذلك، في اجتهاد أهل العقل والرشد والحكمة .

فباستطاعة الحكماء الفقهاء ، من ذوي السلطة الإسلامية ، الأخذ بسياسة التغاضي عن تطبيق بعض الأحكام الشرعية، اتباعاً لسنة التدرج الحكيم في التطبيق .

ولا يعتبر تأجيل التطبيق بالنسبة إلى بعض الأحكام الشرعية ، التي ترج استقرار المجتمع ، من خيانة الأمانة في الإمارة ، أو رقة الدين والاستهانة به ، أو من اتباع خطوات الشيطان، بشرط صحة العزم على التطبيق ، بعد استيفاء الشروط المواتية له في المجتمع ، مع العمل على اتخاذ الوسائل التمهيدية التي تجعل التطبيق أمراً حكيماً ميسوراً ، يملك السلطان أمره فيه، دون إحداث قلقلة واضطراب في المجتمع.

ودليل هذه وصية الرسول ﷺ لمعاذ بن جبل ، حين بعثه إلى اليمن كما سبق آنفاً.

وهذا من السياسة الحكيمة في الإدارة.

الفصل السابع

نظرات بشأن أوليات وأولويات التطبيق

بالنظر إلى واقع دول وشعوب الأمة الإسلامية في عصرنا الحاضر، البعيد عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية في الأنظمة والقوانين منذ عهد بعيد ، حتى صار حالها مماثلاً لأحوال أمة دخلت في الإسلام حديثاً ، مبتدئة بالقاعدة الإيمائية ، فالصلاة بصورة إفرادية لا إلزام بها من قبل السلطة الإدارية.

وبالنظر إلى ضغوط الدول العظمى في العالم على المسلمين، ومؤامراتها الكيدية في كل مكان، والملزمة لهم ولد ولهم إلزاماً شديداً بإصدار قوانين وأنظمة تخالف شرائع الإسلام وأحكامه.

وبالنظر إلى وجود مناصرين لهذه الدول من ملاحدة وفساق ، ينتمون إلى شعوب الأمة الإسلامية انتماء قومياً ، وتقتضي الديمقراطيات التي تفرض في العالم، إعطاءهم حق المشاركة في اختيار القوانين والأنظمة التي تطبق عليهم.

فالذي ينبغي لأهل العقل والرأي السديد، والرشد والحكمة ، اتخاذه، ممن لهم سلطات إدارية، أو كلمات مسموعات وآراء مقبولة لدى الشعب والدولة ، أن يعمدوا إلى سنة التدرج التي سبق بيان مستندها العقلي والشرعي في الفصول السابقة، والتي رأينا فيها أن الحكمة في السياسة الشرعية تقتضي الالتزام بها، لدى إصدار القوانين والأنظمة والقرارات المقتبسة من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع المسلمين، والراجح من اجتهادات الفقهاء الموثوق بهم ، مع الاستفادة من مؤتمرات فقهية تجمع خيرة فقهاء هذا العصر، والمشتملة على أحكام الشريعة الإسلامية ، الصالحة لأن تصدر بها قوانين وأنظمة وقرارات تلتزم بها الدولة المسلمة، ويطيع لها المجتمع المسلم الخاضع لهذه الدولة، المتجهة بعزيمة صادقة ليس فيا رياء ولا خداع، لإصدار هذه القوانين والأنظمة والقرارات ، ووضعها موضع التطبيق الفعلي بصورة تدرجية حكيمة وحازمة.

وينبغي بعد أن تأخذ صيغتها النهائية من قبل اللجان المختصة، التي اعتمدت فيها على مقررات اللجان والمؤتمرات الفقهية، التي جمعت أهل الحل والعقد الفقهي من فقهاء المسلمين في العالم الإسلامي ، أن تأخذ الموافقة عليها من مجلس الأمة ، الذي يعطيها غطاء ديمقراطياً أمام الدول العظمة الضاغطة ، التي تتخذ من الأساليب الديمقراطية ذرائعها لفرض قوانينها وقراراتها الوضعية ، المخالفة لدين الله لعباده.
وينبغي بعد ذلك أن تعرضها للاستفتاء العام ، بعد تهيئة أكثرية الشعب سياسياً للموافقة عليه ، والمطالبة به بإلحاح معلن جماهيرياً وإعلامياً .
والذي اراه أن يكون التدرج متبعاً الأوليات والأولويات.
أولاً : من الأوليات والأولويات إصدار قوانين ومراسيم وقرارات تعليم الدين الإسلامي للمسلمين ، ضمن مناهج تصاعدية تكاملية مسايرة لأساليب العصر ، والمفهومات الثابتات الصحيحات ، من العلوم التي قال العلماء فيها كلماتهم النهائية، والبعيدات عن زيوف أصحاب الأهواء والمفسدين في الأرض. وتتناول هذه المناهج التصاعدية التكاملية العقائد الإيمانية ، والأخلاق ، وأسس الفكر الديني ، وأحكام العبادات ، وأحكام نظام الأسرة الإسلامية ، وأحكام المعاملات في السلم والحرب، في كل مراحل التعليم، من مرحلة الحضانة فالمرحلة الابتدائية ، فالإعدادية ، فالثانوية ، فالجامعية ، وحتى غاية الحصول على شهادة الدكتوراه ، مع بيان الأدلة الشريعة.
ويرافقها الإلزام بتنقية العلوم الأخرى، التي تدرس في المؤسسات التعليمية كلها، من كل ما يخالف الحقائق الإسلامية ، مع الاستفادة من مطابقة بعض حقائق العلوم، لما جاء في الإسلام من حقائق ، تثبيتاً للإيمان بان الإسلام دين الله الحق ، المنزل على رسوله الصادق الأمين.
ثانياً : ومن الأوليات والأولويات إصدار قوانين ومراسيم وقرارات التعليم الإلزامي المجاني، لجميع الأجيال الناشئة وحتى غاية التعليم العالي ، بشرط أن يثبت الناشئ أهليته وكفايته الذهنية ، والنفسية ، والاجتهادية ، لمتابعة التعليم الذي تتبع في الوسائل المشددة الحازمة في الحضور والنجاح والرسوب ، والذي لا يسمح فيه بتكرار

الرسوب في السنة الدراسية الواحدة ، أو الفصل الدراسي الواحد ، بأكثر من مرة واحدة.

وإلا كان ملزماً بنفقات دراسية ، حتى يثبت أهليته وكفايته.

وقد يقتضي تحقيق التعليم المجاني العالم فرض ضرائب خاصة بتسديد نفقات التعليم.

ويحسن الاستفادة من أنظمة الدول السابقة في مجال التعليم المجاني العام، التي أخذ التعليم لديها وضعاً مستقراً.

ثالثاً : ومن الأوليات والأولويات إصدار قوانين ومراسيم وقرارات التأمين الصحي العام، وما يحتاج إليه من ضرائب لتسديد نفقاته.

ويحسن الاستفادة من أنظمة الدول السابقة في هذا المجال.

رابعاً : ومن الأوليات والأولويات إصدار قوانين ومراسيم وقرارات تنظيم جباية الزكاة، وإنفاقها على مستحقيها ، وفق الأساليب والأنظمة الحضارية الراقية للجباية والإنفاق.

ويرافقها إصدار قوانين ومراسيم وأنظمة التأمين الاجتماعي الاقتصادي.

خامساً : ومن الأوليات والأولويات إصدار القانون الشامل لأحكام نظام الأسرة المسلمة ، وفق أحكام الشريعة الإسلامية، المؤيدة بالقرآن والسنة، وسائر مصادر الشريعة الإسلامية.

ومن ضمنه نظام المواريث كما شرع الله عز وجل ، وبين رسوله الكريم، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وينبغي أن يوافق على نظام الأسرة الفقهاء المعتمدون في العالم الإسلامي ، المؤهلون للمشاركة بنظرات فقهية اجتهادية ، بعيدة عن التعصب المذهبي ، وبعيدة عن التشددات اللاتي لا تلائم سماحة الإسلام.

سادساً : ويلي ما سبق إصدار قوانين ومراسيم وقرارات ضبط المعاملات المالية بين الناس، وفق أحكام الشريعة الإسلامية، أخذاً بالراجح من مختلف المذاهب الإسلامية، بحسب الأدلة من القرآن والسنة وسائر مصادر الأحكام الدينية.

ويرافقها ما يضبط الحقوق المالية كسباً وإنفاقاً.

سابعاً : ويلي ما سبق إصدار القوانين والمراسيم والأنظمة والقرارات ، التي تضبط حقوق الإنسان بشأن الضروريات الخمس (الدين – النفس – العقل – المال – العرض) ضمن أحكام الشريعة الإسلامية ، ومنها أحكام القصاص ، ثم الحدود.

ثامناً : استكمال تأسيس المؤسسات الإسلامية البنكية البديلة للمؤسسات الربوية المنتشرة في كل بلاد الدنيا ، ودعم المؤسسات البنكية الإسلامية، بكل ما يمكن من دعم، بغية نشرها في العالم.

ليكون وضعها السليم قاطعاً لأعذار المعتذرين، بعدم وجود مؤسسات مالية بنكية ، تضمن لهم حقوقهم المالية ، والاستثمار المشروع وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

ويلي ذلك إصدار قوانين تحريم الربا بحزم ، إذ يكون قد وجد البديل المناسب، وهو الأفضل والأحسن، والأكثر فائدة لعموم الناس ، والذي لا يسمح باستغلال الأفراد الجشعين الظالمين لأموال ذوي الحاجات والضرورات للقرض الحسن.

الخاتمة

ها ما فتح الله به علي في هذا الموضوع، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه إلى الحق، والرأي السديد، والفهم الرشيد، والاستنباط الحميد، ووصلت فيه إلى الإقناع بالحجج والبراهين العقلية ، وبالأدلة النصية، وبالحكمة وفصل الخطاب، مع الإيجاز غير المخل.

وأسأل الله عز وجل أن يلهم ولاة أمور المسلمين، العودة إلى تطبيق أحكام شريعته التي اصطفاها للناس أجمعين ، وأنزلها على خاتم الأنبياء والمرسلين تامة كاملة ، وأمرهم بأن يتبعوها ، جاعلين الله وحده وليهم ، وغير متخذين من دونه أولياء ، عملاً بقوله – جل جلاله وعظم سلطانه في سورة (الأعراف ، ٧ مصحف ، ٣٩ نزول) :

(اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون (٣).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وكان الفراغ من كتابة هذه الرسالة صباح يوم الاثنين ٩ من شهر رجب ١٤٢٠ هـ الموافق ١٩ من شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٩م

عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي

أستاذ بجامعة أم القرى سابقاً

المحتويات

الفهرس ....

صدر من هذه السلسلة :

١- عوامل السعة والمرونة في الشريعة الإسلامية.	الدكتور/ يوسف القرضاوي
٢- العناية بالعبادات أساس لا بد منه لتثبيت المجتمع الإسلامي	الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي
٣- مجمل الشبهات التي تثار حول تطبيق الشريعة الإسلامية في العصر الحديث.	الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي
٤- العقوبات الإسلامية وعقدة التناقض بينها وبين ما يسمى بطبيعة العصر.	الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي
٥- حقوق المرأة وعقدة التناقض بينها وبين الشريعة الإسلامية	الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي
٦- الواقع التربوي والتغيير المطلوب	الدكتور / عجيل جاسم النشمي
٧- الانفصام بين النظرية والتطبيق ودور الفكر الغربي.	الدكتور / عجيل جاسم النشمي
٨- سمات التربية الإسلامية وطرقها	الدكتور / عجيل جاسم النشمي
٩- وسائل التربية الإسلامية	الدكتور / عجيل جاسم النشمي
١٠- التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية	الدكتور / محمد عبدالغفار الشريف
١١- معوقات تطبيق الشريعة الإسلامية	الدكتور / محمد أبوالفتح البيانوني
١٢- المجتمع الكويتي المعاصر وظروف استكمال تطبيق أحكام الشريعة.	الدكتور / محمد سليمان الحداد
١٣- دور الأسرة في تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية	الدكتور / بشير صالح الرشيدي
١٤- التدرج في التشريع والتطبيق	الأستاذ الدكتور / محمد مصطفى الزحيلي
١٥- الشريعة الإسلامية بين التدرج في التشريع والتدرج في التطبيق	الشيخ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني